تـعـريـف الـسـيـمـيـائـيـة
عـرض لأهـــم الاتجـاهـات

الأستاذ: **عقـاب بلخيـر**
المركز الجامعي -مسيلة-

ولادة المصطلـح:

تنبأ دي سوسير بنشوء «علم يدرس حيـاة الدلائـل فـي صلـب الحيـاة الاجتماعية»[1]. ويكون هذا العلم «قسما من علم النفس الاجتماعي والتالي قسـما من علم النفس العام»[2]، ويقترح تسميته بـ: Sémiologie أي علم الدلائل. وهـي كلمة مشتقة من اليونانية Sémeion بمعنى دليل.

وهو يعتبر أن الألسنية ليست إلا قسما منه. وقد حدد لعالم النفـس مهمـة ضبط «منزلة علم الدلائل» [3] بينما حدد للألسني مهمة البحث، فيما «يجعل مـن اللغة نظاما خاصا ضمن مجموع الظواهر الدلائلية» [4].

وهو يتخذ خطأين بسبب عدم الاهتمام بهذا العلم، وظهوره الـذي يشـكل أهمية قصوى لدراسة الدلائل. التي تعني النسق.

1. الخطأ الأول: هو «ذلك التصور السطحي المتفشـي بيـن الجمـهور العريض من الناس. وهو لا يرى في اللغة إلا قائمة من الكلمات»[5].

2. الخطأ الثاني: هو «وجهة نظر عالم النفس الذي يدرس أولية الدليل لدى الفرد. وتلك الطريق أسير إلا أنها لا تتجاوز مستوى التنفيذ ولا تبلغ الدليل الـذي هو اجتماعي بطبيعته»[6].

فدي سوسير يرى، أن المسألة اللغوية هي أولا وقبل وكل شـيء (مسـألة دلائلية) [7].

إذا حسب المفهوم السوسيري، فإن الإنسان يفكر من خلال الدلائل، «فاللغة نظام من الدلائل يعبر عما للإنسان من أفكار، وهي في هذا شبيه بالكتابة وبألفبائية الصم والبكم، وبالطقوس الرمزية وصور آداب السلوك، وبالإشارات الحربية وغيرها. إلا أن اللغة أهم هذه الأنظمة جميعها»[8].

إن نظريته حول الدال والمدلول، التي هي مدار الدراسات البنيوية كلها. لا يمكن تجاوزها، بل يجب الانطلاق مبدئيا من خلالها، على اعتبارها مبدأ البحث عن دلائلية الأنساق العامة للخطاب.

إن الدليل عند دي سوسير اعتباطي، بمعنى أن علاقة الدلال بالمدلول علاقة اعتباطية، فالأول لا تربطه بالثاني أية علاقة فإذا فككنا كلمات الدال إلى وحدات صوتية، تظهر الكلمة حينئذ مجموعة من الوحدات الصوتية، لا تتضمن أية وحدة منها معنى معينا، لكن يرى دي سوسير في التواضع بين المجموعات البشرية، عامل إلصاق المدلولات بدوالها التي تتكون من أصوات معينة. وهو من خلال هذا يبحث في كيفية تشكل المدلولات البشرية الواحدة، وهو يأخذ مثالا لذلك "الإشارات"، فالذي «يفرض استعمال تلك الإشارات هو هذه القاعدة وليس قيمة تلك الإشارات في حد ذاتها»[9].

فالتواضع هو الذي يعطي قيمة لها، ناهيك عن اللغة التي هي أرقى أنواع التعبير، ومؤسسة من المؤسسات الاجتماعية الكبرى.

إن الاعتباطية من خلال ما سبق لا تعني أن الدال خاضع لاختيار المتكلم نفسه، وإنما ذلك يعني أن «الدال غير مبرر، أي انه اعتباطي بالنسبة إلى المدلول وليس له به، أي رابط طبيعي موجود في الواقع»[10].

فالتواضع عند دي سوسير يشكل أساسا مهما، وأوليا في تحديد طبيعة العلاقة التي تربط بين الدال والمدلول.

هذا على صعيد الكلام اليومي أو أي نوع من أنواع الكلام (الأمر هنا يتعلق بأصل المنشأ، إذ المتكلم ليس حرا في تغيير عرف لغوي معين فهو يلبس العرف بالصورة المفهومية التي يحملها والتي تتطابق مع القاعدة الاجتماعية العامة أيضا). بينما نجد اللغة الشعرية تظهر فيها الاعتباطية بشكل أكبر، فهي لغة مجازية، تقلب المفاهيم المتواضع عليها، وإن لم تخرج عنها، لكن السياق يحول الكلام ويغير في مفهوم المعنى بشكل غير مألوف، فاللغة احتمالية منذ بدئها ولا منطقية، يعمل في النفي دورا مهما.

وقد أشار دي سوسير إلى الصفة الخطية للدال، فطبيعة الدال سمعية، بمعنى أنه «يجري في الزمن وحده»[11]، بينما الكتابة «تحقق لها تتابعا في خط المكان»[12]. وقد أشار إلى الجانب الداخلي في اللغة هو «ما يغير نظامها بنسبة من النسب»[13]. فنظام اللغة مغلق، ومحاولة الولوج إلى الجانب الداخلي فيه، هو محاولة تغيير هذا النظام عبر مستويات اللغة المختلفة، بمعنى أن اللغة تنتقل من مكان إلى مكان بواسطة عملية التفكيك لترك المجال للتأويل والبحث عن العناصر الداخلية (العميقة).

ودي سوسير يقيم علاقة بين الصوت والفكر، ويركز على طابع التجزؤ في الخطاب، فالأمر يتعلق بتلك الظاهرة الغريبة نوعا ما والمتمثلة في أن «الفكر–الصوت، يقتضي وجود تجزيئات في أن اللغة تنشئ وحداتها وذلك بأن تنشئ نفسها بين كتلتين مبهمتي المعالم»[14].

فالفكر شيء مشوش، لا بد له من أن يتجزأ لكي ينضبط، والعلاقة بين الفكر والصوت بمعنى علاقة الدال والمدلول، هي علاقة قفا الورقة بوجهها على حد تعبير دي سوسير.

هذا التداخل بين الدال والمدلول يتشكل داخل نظام، إذا تغير منه شيء، تغير سائر النظام. وقد استعمل دي سوسير مصطلح القيمة La valeur لتبيان

الصفة الترابطية بين الدال والمدلول، حيث اعتبر القيمة مفهوما أساسيا، أهم من الدلالة نفسها، وهو يقدم لنا مثالا حيا عن المفهوم التعالقي للدلائل، التي لا يمكن أن يعوض فيها دليل دليلا آخر، بل قيمة كل دليل إنما تنتج من خلال العلاقة التي يقيمها مع سائر الدلائل. وهذا المثال هو قطع الشطرنج «فقيمة كل قطعة بالنسبة إلى بقية القطع هي رهينة موقعها من الرقعة وذلك كما أن كل عنصر من عناصر اللغة تتحدد قيمته بتقابله مع جميع العناصر الأخرى»[15].

وهو من خلال هذا التناول يبين عناصر مهمة منها:

1. أن هناك اعتباطية خاصة (تواضع على قوانين اللعبة، تواضع على قوانين اللغة).

2. عملية تبديل القطع لا تكون إلا مرة واحدة في كل لعبة، وبمقابلتها باللغة؛ فإن التغيير فيها لا يكون إلا من خلال «عناصر منعزلة»[16].

يشير دي سوسير من خلال هذا إلى ظاهرة الزمانية وتبدل الدلائل Synchronique.

3. استحالة التنبؤ «بالحدود التي يقف عندها ذلك التأثير»[17]: التأثير على كامل النظام، وتكون التغييرات في القيم «بعد كل عملية إما منعدمة أو هامة جدا أو متوسطة الأهمية وذلك حسب الظروف»[18].

4. أن تحويل قطعة من مكان إلى مكان لا تتشابه، ولا تكون حالة التحويل متوافقة، ويشير من خلال هذا إلى الظاهرة المكانية Diachronique.

غير أن أهم فرق بين لعبة الشطرنج واللغة، هو أن الأولى تتوفر فيها المقصودية، بينما الثانية فهي خالية من كل قصد[19].

إذن فإن قيمة الدليل من خلال هذا، تمكن في علاقته بسائر الدلائل، وكل مرة يتبدل فيها موقع الدليل تتشكل قيمة أخرى، تضيف للنظام شيئا جديدا، وتخضع لقوانين خاصة، لا يمكن أن تشوه النسق أو تخالفه في كليته.

كما يمكن لنا معرفة القيمة من خلال مقارنتها بقيمة مشابهة لها، ولنر مثلا إلى علاقات الاستبدال في داخل النص، وذلك يكون بإبدال لفظ بلفظ آخر. ومن خلال هذا الإبدال يتشكل معنى جديد يضاعف مدلول النص، بمعنى إن الدلالة ترتبط بالقيمة لتحدد مجال استعمالها.

تبلور المشروع السيميائي عند بارت Barthes منذ ظهور كتابه Mythologie ثم كتابه Eléments de sémiologie. انطلق بارت من فريدنان دي سوسير، الذي تنبأ بهذا العلم، واحتفظ باللسانيات، ولكنه قلبها، فبدلا من أن تكون السيميائية هي العلم العام للدلائل كما جاء عند دي سوسير، تكون عند بارت جزءا من اللسانيات، وقد اعتمد على هيالمسيلف Hjelmself وليفي ستراوس Levi Strauss، ومن خلالهما سيحاول أن يمزج بين اللغة (كعلم) والأنظمة غير اللغوية.

ولعل أهم ما يميز النظرية السيميائية عند بارت انه يريد حصر الأنظمة غير اللغوية داخل إطار اللسانيات، وهذا مشروع حاول إقامته، لكون أن التحليل أن يضبط العلامات الخارج إطار اللغة (مجمل الأنظمة الأخرى). هكذا تكون العلوم المختلفة (المرتكز عليها في التحليل مثل علم النفس، علم الاجتماع، الفيزياء)، على اعتبارها تدخل في إطار الحياة الاجتماعية التي تنتج العلامات، تخضع إلى إطار التحليل السيميائي، بعد استخراج هذه العلامات. وبارت يقدم مثلا، علاقة بديهية بالاقتصاد وعلم الاجتماع، ولكن السيميولوجيا لا تعالج لا الاقتصاد ولا علم الاجتماع المختص بدراسة الأزياء، فهي تقول فقط، تحت أي مستوى من النظام الدلالي للأزياء، يمكن إدراج الاقتصاد وعلم الاجتماع ضمن التصور السيميائي[20].

وبارت من خلال هذا البحث عن أنظمة هذه الدلائل، يهدف إلى ما هو داخلي، وليس محض نظرة خارجية تتناول الدلائل غير اللغوية وفق تفسير علمي

منهجي ليس له علاقة بالنظام الاجتماعي (مستوى المجتمع، الطبقة، المحل) بـل النتائج العلمية الصرف، هكذا يهدف المحلل إلى تحديد هذا النظام من الداخل[21].

وهو ما يطلق عليه المتن[22] Le Corpus الذي يكون محصلة للتحليل العام للدلائل من طرف المحلل، من خلال معطيات يستند عليها في عمله. فمثلا –كما يمثل لذلك بارت– النظام الغذائي للفرنسيين، يجب أن نقرر بدءا، تحت أي إطار من الوثائق سيعتمدها التحليل (مجموعة القوائم الحسابية الموجودة في الجرائد، المطاعم، أو القوائم الحقيقية المشاهدة أو المحكي عنها). هذا المتن يجب أن نأخذه بشكل دقيق، بمعنى يجب أن لا نضيف عليها شيئا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يجب أن نقتل هذا المتن تحليلا وبحثا. وذلك من أجل البحث عن نظامه[23].

من خلال هذا يستند بارت على المعطى الزماني والمكاني الذي تناوله دي سوسير –الذي سيعتمد ألسنيته– في مجال اللسانيات الزمانية واللسانية المكانية، مما يدل على محاولة قلبه المعطى اللغوي وتحويله إلى المعطي غير اللغوي. أو بمعنى آخر تحويل العناصر غير اللغوية إلى نظام لساني، يحكم خروجه عن التحليل الخاص بالناقد اللساني (الألسني تعني الاختصاص في مجال العلم الصرف).

وهو يعتمد هذين النظامين (الزماني والمكاني) في تحليل الأنظمة العامة داخل المؤسسة، مثل: نظام جرائد الفترة الحالية، والجرائد القديمة، ويبحث من خلال ذلك، عن المتغيرات والمستجدات من سنة إلى أخرى، وقس على ذلك.

إن هذه الدراسة المحصلة لفترات زمنية تدرس الوضع الاجتماعي لاستخراج الطبيعة المحضة لمجتمع وغير ذلك من الاستثمارات السيميائية، هامة ومبدئية، لأنها تسمح لنا باكتشاف الزمن الفعلي للأنظمة، بمعنى آخر تاريخ الأشكال، كما يعبر عن ذلك بارت[24].

ولعل أهم استناد لبارت، قلب من خلاله لسانيات دي سوسير أو اعتبره مكملا ومحددا لهذا النظام السويسري، هو استناده بهيالمسليف الذي كان له دور في البحث عن علاقات الحضور والغياب. فهو يبين أنه لإيجاد تبدل في المعنى، يجب البحث في علامات أخرى، والتي نقدمها بشكل تعاقب بين علاقة (حضور، غياب):

1. هذه العلاقة تتضمن أو لا تتضمن إبراز الجانب النفسي لأحد الطرفين.
2. هذه العلاقة تتضمن أو لا تتضمن تشابها بين الطرفين.
3. العلاقة بين الطرفين (الحافز وجوابه) علاقة وسطية.
4. الطرفان يتطبقان تماما أو عكس ذلك، الأول يغمر الثاني.
5. العلاقة تتضمن صلة وجودية مع الطرف الذي يشتغل[25].

هذه النقاط هي عبارة عن خصائص طرفي الحضور والغياب والمحتوى معا وبهذا يكون لدينا:

1. جوهر La substance de l'expression: وكمثل لذلك جوهر الصوت التمفصلي، لا الوظيفي، وهو الذي يشغل الأصوات، فقه اللغة.

2. شكل منظم للتعبير بواسطة القوانين الاستبدالية والتركيبية (نسجل بأن نفس هذا الشكل، يمكن أن يكون له جوهران مختلفان، الأول خطي والثاني صوتي).

3. جوهر المحتوى La substance du contenu: وهي تلك المظاهر الانفعالية أو الإيديولوجية، وببساطة مفاهيم المدلول (صوت، معنى) (إيجابي).

4. شكل المضمون ويعني التنظيم الشكلي للمدلولات فيما بينها عن طريق حضور أو غياب للطابع الدلالي[26].

هذا الاستناد يعتبر ركيزة، يمسك من خلالها بارت بالمنهج السـيميائي ذي المنطلق اللغوي، ومن خلاله يتسنى له قراءة مجموعة الأنساق العلاميـة داخـل المؤسسة.

ويمكن تلخيص نظرة بارت بكونه لا يقيم علاقة بين سـيميائية التواصـل والسيميائية اللغوية (تسميته نفسها Sémiologie تدل على التواصل الذي يتنـاول علاقات التواصل بين الحيوانات والحشرات...) فهو يستعمل المصطلـح لقـراءة الأنماط الاجتماعية التي تدل على هيئة اجتماعية. إنها قراءة مؤسساتية إن صـح هذا التحديد. ومن خلالها نستفيد في تناولنا لتراتبات الدوال ونمطها الذي يعبر عن أمة مرتبطة بوضعها الخاص.

يأخذ مفهوم الدلائلية عنـد كريسـتيفا مفـهوما آخـر هـو السـيمانااليز Sémanalyse التي تعني السيميائيات التحليلية، التي حاولت أن تلغي من خلالـها اللغة التواصلية التي طغت على تحديد مصطلح السيميائية. وهي تعرفـها بأنـها «حقل يذكر قوانين الدلالية دون أن يترك نفسه يحاصر من طرف منطـق اللغـة التواصلية التي تغيب فيها مكانة الذات. وباعتبارها كذلـك فإنـها تقـوم بإدمـاج طوبولوجيات الدلالية في خط تنظير المنطق، ومن ثمة تنكمش على نفسها، كما لو كانت تنكمش على أحد مواضيعها، ولذلك فهي سوف تتبنى كمنطق، لكن عـوض أن تكون منطقا صوريا، فإنها ستكون ما يمكن تسميته "منطقاجدليا"، وهو مصطلـح يضفي طرفاه بشكل متبادل غائية الجدل المثالي والرقابة المسلطة على الذات فـي المنطق الصوري"[27]

من خلال هذا التعريف، يمكن استخلاص مايلي:

1. التحليل الدلالي ليس هو المفهوم السيميائي الذي يتحدد من خلال اللغـة التواصلية. وهي بهذا تتجاوز مجموعة من الاتجاهات السيميائية.
2. إعادة الاعتبار للذات، التي تغيب من خلال مفهوم السيميائية السابق.

3. تحويل المنطق الوصفي إلى المنطق الجدلي، القائم أساسا بين الذات والواقع، وهي من خلال ذلك تقلب الجدل الماركسي الذي غيب الذات داخل المجتمع أو الواقع، بمعنى المجتمع/الذات. لا الذات داخل المجتمع.

إن كريستيفيا في عملها هذا تهدف إلى علم نصي، يستند إلى كل العلوم في محاولة توفيق بينهما. ويخولها أن تشكل نسقا معرفيا يلغي تجزيئيتها، ويضفي عليها طابع التراتب والتظافر، وكريستيفا من خلال هذا تعتمد على أسين كبيرين:

1. مجمل أعمال بورس، في تصنيفه للعلوم، التي تبين عمله هذا بقولها: «يخصص بورس في تصنيفه للعلوم، مكانة خاصة لعلم النظريات الذي يضعه بين الفلسفة والملاحظة الصرفة Idioscopie التي تنتمي إليها العلوم الفيزيائية والإنسانية، ويشكل علم النظريات مكونا داخل العلوم الفلسفية (المنطق علم الجمال، علم الأخلاق...الخ) إلى جانب ما يسميه بورس (الفلسفة الضرورية Necessary Philosophy التي يمكن تسميتها بالإبستمي épstemy حسب تعريفه، لأنها الوحيدة التي تحقق ضمن العلوم التصور الأفلاطوني الهليني، بشكل عام للإبستمي»[28]. هذا المصطلح يعتمد بورس على أنه التفسير الوحيد الذي يمكن أن يوافق التصور الأفلاطوني الهليني ويخول لدراسة زمانية مكانية[29]، تنتقل عبر التراتبات وتدرس فكر الدلائل من خلال ذلك، وهذا ما لم يتحدد بعد كما تقول كريسيتيفا.[30]

إذا فالمجال السيميائي حسب رأي كريستيفا، يكون نظرية عامة للعلوم. وهذا المجال هو الذي «يغير من التمييز بين الفلسفة والعلم، ففي هذا المجال لا تستطيع الفلسفة تجاهل خطابات (أي الأنساق الدالة للعلوم) ولا تستطيع العلوم نسيان كونها خطابات/ أنساقا دالة»[31].ومن خلال هذا فإن التحليل الدلائلي الذي هو مجال لتداخل العلوم من جهة، ومجال لتحليل نقدي من خلال التصور العلمي

لذلك من جهة ثانية «يرتسم كتمفصل يمكن من الشكل المهشم والمتراتب والتمايزي لمعرفة مادية»[32].

بالنسبة للأس الثاني فهو كما جاء في الكلام الموجود أعلاه، (معرفة مادية) فكريستيفا تستند على نظرية ماركس، ولكنها تقلبها لتعطي قيمـــة للـذات داخـل المجتمع، وهي من خلال عملها هذا وهدفها لوضع علم نصاني يفكر لقوانين تبـدل الدلائل، تهدف إلى إقامة وضع قائم على تفكير موضوعي يتناول الدلائـل داخـل الحياة الاجتماعية الخالصة.

وهي تلخص هذا الهدف العام بقولها أن التحليل الدلائلي «يمـــزق الحيـاد الخفي للغة الواصفة ذات التضخم العياني والمنطقي، ويعين للغات عملياتها النهائية لتلصقها بالذات والتاريخ، فالتحليل الدلائلي أبعد من أن يتقاســـم حمـاس الجلـو سيبميائية التي وسمت العصر الذهبي للعقل المنســق المؤمـن بكونيـة عملياتـه المتعالية[33]، ولذا فهو يجد نفسه منتميا إلى الخلخلة الفرويدية، وفي مستوى آخـر، ماركسي هذه المرة، وبلا علاقة مع الذات وخطاباتها يقوم التحليل الدلائلي بالشكلنة التي يهدف بها إلى التفكيك، بدون أن يقترح أي نسق عام مغلق، وهو يتفادى بـهذا الانكماش اللامعرفي للغة على نفسها ليعين لها خارجا/...موضوعا)« (نسـقا دالا) صلبا تقوم السيميائيات بتحليله كي تموضع شكلانيته في تصور مادي تاريخي يقيد إليه هذه الشكلنة»[34].

غير أن الأس الأهم الذي يربط نسق العلوم والفكر المادي الجدلي، المقلوب على وضعه الإيديولوجي؛ هو علم النفس، إذا تعلق الأمر بالنص الأدبي الذي يفكر لوحده ويشكل علمه المتفرد الذي لا يمكن أن نشكله له من الخارج، وهذا يعني «ن النص يقترح على السيميائيات إشكالية تخترق صلابة الموضوع الدال المنتـــوج، ويكثف داخل المنتوج (المتن اللساني الحاضر) سيرورة مزدوجة لإنتاج وتحويـــل المعنى، في هذه النقطة من مسار التنظير السيميائي، يتدخل التحليل النفسي ليمنحه

مفهمة قادرة على الإمساك بالإمكانية المجازية داخل اللسان، وذلك عبر التعبير المجازي»[35].

إن هذا البحث السيميائي قلب وضعية اللغة، فبدل أن تكون نسقا عاما لدلائل تخضع لوضعيتها السياقية وحسب؛ انتقلت إلى وضعية المفردة المعزولة داخل سياقها أيضا. ولكن هذه المرة تصبح المفردة حاملة لإرث تاريخي من العطاء، ومتصورا قادما من العصور، كما تصبح صورة عامة لوضع اجتماعي خاص.

غير أن السيميائيات وحدها تبدو قاصرة إذا أخذنا بعين الاعتبار العلاقات اللغوية التي تتم بين القارئ والمتلقي. بمعنى العلاقات الإنتاجية التي تنتقل من مجال العلامة كدال معزول إلى العلامة المنتجة في علاقتها بالوسيط.

بعد هذا العرض تنتقل إلى شرح نظرية غريماس التي هي نظرية سردية أكثر من غيرها من النظريات الأخرى.

يشبه غريماس النظرية السوسيرية للغة بحاجز ناري، يمثل بالنسبة لنا (كتصور) عالم المعنى، ومن ورائه شبكة عنكبوت لا تكاد نتبينها، وهي تحيك آلاف الانزياحات (الخيوط) المختلفة والمتشابكة[36].

فالعالم الأول هو الثابت، بينما الثاني، هو عالم الأشياء التي لا نعي منها إلا ما ندركه عنها، وما فكرة التواضع السوسيري إلا صورة مصغرة لعمل الفكر الذي يبدو أوسع من حاجز المقاربة والمقايسة والموافقة.

ولنمثل اللغة في هذا المنحنى، بزحف الكلمة وتقليب وضعها الأحادي (الأول). ومن خلال هذا التقليب يجد الفكر له متنفسا جديدا للتعبير عن الصورة الخاصة التي ليس لها معادل حقيقي في عالم الأشياء الحسية، إنه ينزاح بمحض وساطة لغوية، وما يخرج عن هذا النطاق يبقى مجرد مشاعر دفينة، نحسها داخلنا

وتتنوع فينا وتتبدل مع أنها تتطلب هي الأخرى وضعا خاصا بها، من حيث إنـــها فاعلية إنسانية.

وأعتقد أن هذا الخطاب هو إحدى صور هذه اللغة الدفينة (الصامتة). وليس الخطاب مجرد استخراج مقصديات الكاتب، أو المتكلم على العموم، وإنما هو أيضا تحريك الفعل الداخلي ذي الوسائط الكلية الملتحمة بعالم الأحاسيس الصامتة، التـــي ليس لها لغة خاصة إلا ما يندبه من مقاربة لتصورنا المحض. هكذا نحيل الدلائـــل إلى أنساق خاصة ونخرق العرف اللغوي ونتعدى على حصانة الشكل نفسه، لنخلق لغة جديدة تحاول إيقاظ ذلك العالم الصامت.

إن هذا التناول يحولنا- كما قال غريماس-، من فرع لغـــوي نحـــس فيـــه براحة إلى فلاسفة، ولكن بالانتساب فحسب، لأن البحث في هذا المجال يحيلنا إلـــى رؤى ميتافيزقية ويقحمنا في فلسفة أبدية[37].

إن النظرية الفلسفية تلك، تجعل من الفيلسوف ينظر لخطاب المعنى، وكأنـــه استعارة هائلة، تشاكل العالم[38] بمعنى العالم، وهذه الاستعارة (الخطاب) وجـــهان لورقة واحدة. هنا يمكن مصدر سوء الفهم، كما يعبر غريماس عن ذلك.

وهذا الفهم الخاطئ يقع على السيميوطيقي الذي يحاول لباس أفكار غـــيره، والحكم على الأشياء (الأشكال، الصفات...العالم) من خلال ألفاظ تقنية.

وملخص القول إن العلمية التي لا تنبع من طبيعة المنهج نفسه تخلع علـــى السيميائي خصوصية بحثه وطبيعته أيضا.

وكذا الحال بالنسبة للرياضي الذي يصدر عن نتائج قطعية أو أنها تنتج عن زخم معرفي يخضع بدوره لمنطق يتبدل ويتـــوزع، ويقلـــب وضعـــه. غـــير أن السيميائي يجب أن يكون له منطقة الخاص الذي يوجب عليه أن يطور خطابا فوق الخطاب بالنسبة للمعنى «وهذا ما يتوجبه منهج السيميائية الـــذي يتحـــول فـــوق وضعيات كلامية خاصة»[39].

لذا فإن الفلسفة أو العلم كمنهج لا يغني السيميائي في شيء، وعلى العكس من ذلك فإن نظرية المعرفة تقيد السيميائي من أجل مراقبة منهجه، أي تقدير تعادل الأنماط (الأشكال) التي تقدم له أو التي تشكل، وهذا يتم عندما يتعلق الأمر بتحليل المعنى[40].

إن الإنسان يعيش في عالم مفهومي، يشرح نفسه بنفسه، لذلك لا تطرح مسألة المعنى، وكل مبحث في هذا يعد خارجا عن نطاق اللغة Métalinguistique.

وحتى أثناء تحليل الكلام، فإننا لا نقوم سوى بنقل المكتوب، إلى كلام (قلب)، فالمعنى من خلال هذا، إن هو إلا تحليل نمطي (Transcodage) [41].

ألا يطرح هذا الكلام مسألة عجز اللغة وانخداعنا بها، إذ نعتمد عليها في كل سلوكاتنا الإنسانية. وأن المحتوى الذي تحمله هو نفسه الذي نعتقد أننا فهمناه والذي نتبناه أيضا في أفكارنا.

وينطرح الأمر بشكل أكثر حدة على لغتنا المؤسسة، وأقصد بها تلك اللغة النمطية المدرسية التي تعتبر ركيزة تفكيرنا وقياساتنا المنطقية، متجاهلين أن ما وراء هذه اللغة المؤطرة- بحكم العرف الفكري- ننخدع بأحكامها، لكون أن الكثير من تنظيماتها الدلائلية مشكلة تشكيلا مقلوبا على وضعه، ولا تقدم لنا إلا صورة أحادية عن وضعها. في حين أنه يتوجب قبل كل شيء أن ندرس لغتنا كي نفكر بها. فرغم أن اللغة ومتعلقاتها تقوم بلعبة إيهام ولا نتفاهم إلى بالأقل القليل من محتواها العام، فهي تتطلب أيضا نقلا آخر، يأتي من إعادة تصحيح دوالها نفسها.

يعتبر غريماس أن أي طرح حول المعنى يعتبر بديهيا، ما دمنا نحن بالفعل نمارس الفعل اللغوي الذي هو في حقيقة الحال أشياء وحركات[42]. ماذا يعني هذا القول؟

إن المعنى متعال دوما عن اللفظ الذي يحمل طابع التعادل، ولكنه يكون خارج إطار الفعل الحقيقي للمعنى. إن الترجمة تنقل اللغة إلى لغة ثانية، وفي حوارنا اليومي ننقل اللغة من وسيط إلى وسيط آخر وتتم عملية التبادل بهذه الصورة الاعتيادية. غير أن الطرف المهم في هذا العمل كله هو المعنى الذي يكون متعاليا في فكه أو بمعنى آخر Transcodage[43].

ومن خلال هذا القول تصبح كل الفعاليات الكلامية؛ بدءا من المتحدث إلى المتلقي، فالكتابة نفسها. فالناقد الذي يتناولها مجموعة من الأكذوبات أو سوء الفهم، مادام العمل الذي تقوم به هذه الفعاليات (استعمال اللغة والاكتفاء بها) بديهيا، ولا يضيف شيئا لعمل المعنى الذي لا ينطبق أبدا مع عرفه اللغوي الذي نعتمد عليه وحده في الحكم على الأشياء.

يرى غريماس أنه إذا راعينا جانب المعنى هذا، يمكن أن ننشئ لغة ثانية تحوي اعتباطيتها الخاصة بها، أو لنقل إنها تنشئ اعتباطيتها، وهذا خلافا للغة الصرف التي تكلم عنها دي سوسير. إن هذه اللغة التي تمثل المعنى وحده -أي الخطاب الذي يدور حول المعنى- تتحول إلى تمرين سيميائي Exercice sémiotique. والسيميائية من خلال هذا تنشطر دلالاتها.

إن المسألة تتحول في هذا الخضم إلى إنتاج للمعنى، يتحول حينها السيميائي إلى كاتب والكاتب يتحول إلى سيميائي[44].

الطرح هنا يتعلق بكيفية تحول الكتابة إلى إبداع، بمعنى زحزحة المفهوم (التعادل) بين الشكل والمضمون لخلق مضمون آخر، من خلال فهم آخر للغة نفسها من حيث أنها لا تعبر عن اعتباطية؛ بل عن أشياء وأشكال وصفات وأفعال. يصبح الناقد حينئذ مدركا للغته، بمعنى مدركا لوضع اللغة التي يتناولها من خلال تشكيلها لصورة مصغرة عن العالم (بكل صفاته)، وذلك من خلال المفردة نفسها. إن الأشكال دائما تكون مستعملة؛ نتخاطب من خلالها ونتحاور من خلالها أيضا

وهذا يعتبر أمرا بديهيا. غير أن الأمر الذي ليس ببديهي، هو تبدل الوضعيات الكلامية وموت اللغة، ثم إعادة بعثها مجددا من زمن إلى زمن آخر. وهذه حال الكتابة بكامل مستوياتها، فزحزحة الشكل كانت دائما على أشدها، وتبدل وضعية الدال ضرورة ملحة لبعث أشكال جديدة أو محاولة فهمها بصورة أكثر قدرة. وهذه المسألة تتعدى إلى نظرية معرفية في فهم العالم، وتصبح السيميائية من خلال هذا تطلب نظريتها الخاصة غير المشروطة بالدرس الألسني الكلاسيكي، بل إنها تخلق ألسنتها الخاصة التي تخاطب العالم من خلال صورته المرسومة في الشكل الفني الذي هو الكتابة.

إن غريماس من خلال هذا يحاول الوصول بالاستعانة بهيالمسليف إلى تجزئة اللغة إلى مستوياتها الأربع التي تتضمن: محتوى التعبير، وشكل التعبير، الذي من شأنه أن ينظر إلى اللغة من كل زواياها، ويمكن السيميائية من اتخاذ وضعية دقيقة لتفسير النصوص.

إنها سيميائية الأشكال، التي من شأنها أن تعطي لنا فهما أوفي للغة المهملة في أعرافنا الكلامية. بمعنى آخر إنها روح الممارسة الفعلية للكلام.

ثم بعد ذلك نتطرق إلى مدلول التحليل التداولي للخطاب، وهو يقوم على مجموعة من القواعد تستند على :

أ. التداول النحوي ومتعلقاته، بمعنى إشكالية الأفعال اللغوية وما تتضمنه، بالمعنى الصريح والمضمر، من خلال حركات هذه الأفعال اللغوية (بمعنى الجمل ذات الخطابات وليس الجمل النحوية الصرفة) [45].

ب. إشكالية علاقة التبادل في اللغة (علاقة التحاور).

ج. تحليل الخطاب بالمعنى (المنظم) والوظيفي[46]

أما فيما يخص التداولية اللغوية، فإنها تهتم أساسا بثلاث مجالات من البحث:

1. دراسة اسم مختلف أنماط التفاعلات في اللغة (مجمل الحركات الفعليـة "الكلامية")، أي التفاعلات الكلامية، وشروط استعمالها. وكمثال على ذلـك نجـد مجموعة من أنواع التحاور الذي ينتج منه تفاعل مثل: الوعد، النظـام، السـؤال، التأكيد[47].

2. من خلال دراسة مختلف الطرائق اللغوية التي يتوفر عليها المتكلم، مـن اجل توصيل هذه التفاعلات اللغوية. ويمكن أن يكون هذا التوصيل مباشرا أو غير مباشر. وهذا مقترن بحضور الطابع اللغوي أو على العكس من ذلك، يكون محددا فقط من خلال سياق التلفظ أي حالة الكلام المباشر في مكان ما أو مقام أو حالـة ما.

3. ويكون مجال الدراسة أيضا من خلال ترابطات التفاعلات اللغوية فـي الخطاب عموما، والمحاورة بوجه خاص، تكمل خصوصيـة التفـاعل "التداخـل" النصاني[48].

بمعنى اختلاط مجموعة من التفاعلات النصية التي تقوم أثناء المحـاورة، ومن خلالها تنتج نصوصا جديدة تقوم بإنتاج مضاعف أثناء عملية التحاور.

إضافة إلى الخطاب الأدبي الذي يقوم بعلاقات حوار (غير مباشرة) والتـي تنتج أفعالا كلامية متعددة، هكذا فالتداولية تكون نهاية مطاف البحـث السـيميائي ومن خلالها يتسنى للسيميائية أن يكتمل فيها البحث.

هكذا أجدني أتناول من التيار التداولي تفرعين كبيرين:

1. النظرية الذاتية الغوية.
2. نظرية الأفعال الكلامية.

وسأحاول تبيان بعض الأسس التي تقوم عليها هذه النظرية:

إن تحليل الخطاب في النظرية التداولية (نقول نظريـة مجـازا لأن فيـها مجموعة نظريات وإن كانت تصب في منحنى واحد) يهدف إلى «تبيان التفـاعل

والتحاور الذي يتم من خلال الحركات الفعلية المباشرة»[49]. وفي الحقيقة فإن «الخطاب التحاوري يمكن وبصورة تامة أن يتحدد بكون مساهمة من طرف المتلقي الذي يمايز ويماثل نفسه لهذا الخطاب»[50].

هذا بالنسبة للخطاب الذي هو لب هذه النظرية من حيث إنها تهدف إلى ما هو خارج عن النحو الصرف، بل تنطلق أساسا من الجانب المفهومي على اعتبار أن الاستعمال يكون مباشرا بين اللافظ والمتلفظ له. والمباشرة هنا تعني الفورية في عملية التخاطب التي تستوجب تفاعلا سريعا من طرف المتلقي. وهذا التفاعل يكون بإنتاج خطاب من الخطاب الأول.

أما الاهتمام الثاني فيتعلق بالبحث في تحليل الخطاب، والتحليلي التحاوري والعلاقة القائمة بينهما.

هناك ثلاث مقاربات نعتمدها في تحليل الخطاب من وجهة نظر تداولية – طبعا– وهي تستند على نظرية مدرسة (بريمنغهام Primingham).

1. هذه المقاربة ترتكز على علم الاجتماع أكثر ما ترتكز على اللسانيات[51].

2. من خلال تحليل الخطاب، فإن الأمر يتعلق بفهم نحو الخطاب[52].

3. إن مبدأ هذه المدرسة يقوم على تحديد مجموعة من أصناف الوحدات الحوارية، وكذا العلاقات (الوظائف) التي من شأن هذه الوحدات الحوارية إنجازها[53].

ثم بعد ذلك نتطرق إلى مدلول التحليل التداولي للخطاب، وهو يقوم على مجموعة من القواعد تستند على:

أ. التداول النحوي ومتعلقاته، بمعنى إشكالية الأفعال اللغوية وما تتضمنه، بالمعنى الصريح والمضمر من خلال حركات هذه الأفعال اللغوية (بمعنى الجمل ذات الخطابات وليس الجمل النحوية الصرفة) [54].

ب. إشكالية علاقة التبادل في اللغة(علاقة التحاور).

ج. تحليل الخطاب بالمعنى (المنظم)، والوظيفي[55].

أما فيما يخص التداولية اللغوية. فإنها تهتم أساسا بثلاثة مجـــالات مـــن البحث:

1. دراسة مختلف أنماط التفاعلات في اللغة (مجمل الحركـــات الفعليـــة)، التفاعلات الكلامية، وشروط استعمالها. وكمثال على ذلك نجد مجموعة من أنـــواع التحاور الذي ينتج منه تفاعل مثل: الوعد، النظام، السؤال، التأكيد[56].

2. من خلال دراسة مختلف الطرائق اللغوية التي يتوفر عليها المتكلم، مـــن أجل توصيل هذه التفاعلات اللغوية. ويمكن أن يكون هذا التوصيل مباشرا أو غير مباشر. وهذا مقترن بحضور الطابع اللغوي، أو على العكس مـــن ذلـــك، يكـــون محددا فقط من خلال سياق التلفظ، أي من حالة الكلام المباشر في مكان ما أو مقام ما أو حالة ما[57].

3. ويكون مجال الدراسة أيضا من خلال ترابطات التفاعلات اللغوية فـــي الخطاب عموما، والمحاورة بوجه خاص، تكمل خصوصية التفـــاعل (التداخـــل) النصاني[58].

بمعنى اختلاط مجموعة من التفاعلات النصية التي تقوم أثناء المحـــاورة، ومن خلالها تنتج نصوصا جديدة تقوم بإنتاج مضاعف أثناء عملية التحاور.

هذه عموما أغلب التوجهات، وهي كلها تحيط بالمنهج الســـيميائي وتقـــدم طروحا ثرية ومختلفة للتحليل ترتبط بالجانب اللغوي والفكـــري وتـــترك حريـــة للدارس أن يتبدل وفق وجهة نظر مؤسسة عبر إمكانات النص نفسه، ثـــم البحـــث عن إنتاجه المحض ومحصول هذا الإنتاج بالنسبة إلى متلقيه.

المراجع

[1]- فردينان دي سوسير: دروس في الألسنية العامة، ص: 37.

[2]- المرجع نفسه، ص.37

[3] - المرجع نفسه، ص.37

[4] - المرجع نفسه، ص.37

[5] - المرجع نفسه، ص.37

[6] - المرجع نفسه، ص.38

[7] - المرجع نفسه، ص.38

[8] - المرجع نفسه، ص.38

[9] - المرجع نفسه، ص.112

[10] - المرجع نفسه، ص.113

[11] - المرجع نفسه، ص.114

[12] - المرجع نفسه، ص.114

[13] - المرجع نفسه، ص.147

[14] - المرجع نفسه، ص.174

[15] - المرجع نفسه، ص.138

[16] - المرجع نفسه، ص.138

[17] - المرجع نفسه، ص.138

[18] - المرجع نفسه، ص.138

[19] - المرجع نفسه، ص.139

[20] - Roland barthes : L'aventure sémiologique. Ed du seuil Paris. 1985. P81

[21] - المرجع نفسه، ص.81

[22] - المرجع نفسه، ص.81

[23] - المرجع نفسه، ص.81

[24] - المرجع نفسه، ص.39

[25] - المرجع نفسه، ص.39

[26] - المرجع نفسه، ص.40

[27] - جوليا كريستيفا : علم النص، ص.17

[28] - المرجع نفسه، ص.17

[29] - المرجع نفسه، ص.17

[30] - المرجع نفسه، ص.17